ملاحظات عابرة :

أحاديث السهرة | مكتبة البيت | الصداقة العائلية

(١)

فى أكثر البيوت حجرة للاستقبال ، وحجرة للنوم ، وحجرة للمائدة ، وحجرة للطبخ . ولكن فى أقلها حجرة للمكتبة ! وهذا يصور مدى اهتمامنا بالغذاء الروحى ، والمظهر الروحى ، والمتاع الروحى .

على أن المكتبة إذا وجدت فى المنزل كانت — فى الغالب — خاصة برب البيت أو لكبار المتعلمين فيه ، فهى ليست " مكتبة البيت " التى نعنيها ، لأنها ليست للجميع ، وليست وسيلة لتثقيف الجميع .

ولقد عرفت من تجربتى الشخصية أن " مكتبة البيت " تساوى مدرسة بل جامعة ، إذا هى كانت مباحة لكل فرد فى البيت ، وإذا اختيرت مؤلفاتها بحيث يجد فيها كل فرد فى البيت مادة غذاء ووسيلة متاع .

ووجود الكتب المناسبة فى متناول الجميع ، وشعور كل فرد بأنه صاحب حق فى الانتفاع بها كما يريد وإحساسه بأنه تبعا لذلك مسئول عن صيانتها ، والاحتفاظ بنظامها ، كل أولئك يخلق فى البيت روحا جديدة ، وصلات جديدة ، ويمنحه ميزات ليست للبيوت الخالية من المكتبات .

ولكن مكتبة البيت يجب أن تكون وسيلة للثقافة لا وسيلة للتسلية فحسب ، فيجب أن تختار كتبها اختيارا دقيقا ، فتبعد عنها الكتب الرخيصة والمسيئة ، وفى الوقت نفسه تحتوى أقسامها على مختلف أنواع الثقافة فى درجات متناسبة ، إذا كانت ثقافة أهل البيت وأعمارهم متفاوتة كما هو المعتاد .

فالقصة والسيرة والتاريخ والاجتماع والأدب والعلم والفلسفة ، وسائر ألوان المعرفة يجب أن تكون ممثلة بالقدر الذى يمثل أذواق الجميع وعقليات الجميع واتجاهات الجميع ، حتى يجد كل فرد منها ما يناسبه وما يهواه .

وإنه لعجيب أن ترى ميول الجميع فيما يقدم لهم من طعام البطون ، ولا ترى ميولهم كذلك فيما يقدم من طعام العقول وغذاء النفوس .

ونحن نشكو الفراغ، ونسعى بكل وسيلة لقتل الوقت، ومكتبة البيت حين يتوافر لها التنظيم والتنسيق، ومجتمع لها الشويق والتجديد، تكفينا مئونة الفراغ، وتريحنا من "معركة قتل الوقت"، وتضيف إلى أعمارنا أعمارا جديدة، وتهبنا ألوانا متعددة من الحياة والجمال.

إن الذين لايقرأون لا يعيشون إلا أعمارهم القصيرة فى محيطهم المحدود، أما الذين يقرأون فيعيشون أعمار المؤلفين وحياتهم النفسية والعقلية، فى محيطات واسعة، وآفاق مديدة. والبيت مكان الحياة المحدود، والمكتبة وسيلة الحياة فى ذلك المكان المحدود.

(٢)

ولا تنقص بيوتنا "مكتبة البيت" وحدها، بل ينقصها كذلك حديث السهرة. فنحن مشغولون عن سهراتنا المنزلية بسهرات أخرى أشدها براءة سهرات القهوة، تلك السهرات التى نقضيها بين زملاء نحن معهم طول النهار غالبا، فلا يكفينا النهار حتى نلحق به الليل، وزوجاتنا وأولادنا فى البيوت منفردون!

إن هذه الحال تجعل البيوت موحشة كئيبة، وتحيل الحياة العائلية ظلا باهتا لا حيوية فيه ولا جمال.

وقد يظن أن جهل المرأة المصرية وتخلفها هو الدافع على هذه العزلة بين الزوجين، ولكن الواقع غير ذلك، والدوافع على هذه العزلة كامنة فى التباعد أكثر من كونها فى اختلاف الدرجة العلمية. فنحن نشاهد هذه الظاهرة بين الزوجين الجاهلين، وبين الزوجين المتعلمين سواء بسواء، اللهم إلا الشذوذ النادر الذى لا يبنى عليه النظريات.

والمسألة إذن فى حاجة إلى علاج من الأساس لتغيير هذه التقاليد المؤذية التى تحرم الأسرة أهم معانى الأسرة وهو التفاهم والاجتماع.

وحديث الموقد مشهور فى البيت الانجليزى وفى الأدب الانجليزى، والموقد هناك لضرورته التى خلقها الجو، فأثمرت تلك التقاليد الاجتماعية الحميدة.

وإذا لم يكن لنا موقد فإن لنا سهرة تناسب جو بلادنا، فيجب أن يكون لهذه السهرة أحاديث، تترك طابعها فى حياتنا المنزلية وحياتنا الأدبية كذلك.

ومما لا شك فيه أن لهذه الأحاديث حين تدخل فى تقاليدنا أثرها الجميل فى تقريب الأحاسيس والأمزجة والعقليات بين جميع أفراد الأسرة، وفى إيجاد جو روحى لطيف بين هؤلاء الذين يعيشون فى مكان واحد، ويتجهون فى الحياة وجهة واحدة.

ولعل وجود " مكتبة البيت " التى أسلفنا الحديث عنها يمهد لهذه السهرات المنزلية اللطيفة ، ويخلق لها موضوعات تتناولها ، وجوا تعيش فيه ، ورفع مستواها عن مجرد القيل والقال ، ويبعدها عن المماحكات الشخصية التى كثيرا ما تؤدى إلى النزاع ، ويوسع مجالها حتى تتناول الشؤون العامة ومسائل الحياة .

(٣)

ومكتبة البيت وأحاديث السهرة دعامتان قويتان لبناء الصداقة العائلية المفقودة فى البيت المصرى إلا فى النادر القليل .

فالبيت المصرى أشبه بالمطعم أو الفندق ، كل قيمته هى تناول الغذاء ، وتنظيف الثياب ثم النوم فى نهاية المطاف !

أما روح الصداقة التى يجب أن تسود أفراده ، وتربط بينهم برباط وثيق من التآلف والتعارف والتفاهم ، فهى روح مفقودة أو كالمفقودة مع الأسف الشديد .

للأب مشاغله وهمومه النفسية التى لا يبثها لأحد ولا يعنى بها أحد ، وللأم مشاغلها المنزلية أو الخاصة وهى وقف عليها لا يقاسمها أحد فيها ، ولكل ولد من لأولاد دروسه ومشاكله الخاصة التى قلما يعتنى بها أحد إلا بالأوامر والتهديدات !

وبعض الأبناء لا يراهم آباؤهم ولا يرون أبناءهم إلا فى عطلة الأسبوع ، وبعض الأزواج لا يجتمعون بزوجاتهم إلا على مائدة الطعام !

والحياة المصرية نظرا لهذا كله حياة جافة لا تنديها الصداقة العائلية الجميلة التى تظلل الجميع وتربط بين الجميع ، وتجعل من هموم كل فرد و شاغله هموما ومشاغل للجمع .

والصداقة العائلية لا تخلق خلقا ، ولا ترتجل ارتجالا ، إنما تتكون شيئا فشيئا من التحية اليومية ، والابتسامة المتبادلة ، والمجاملة الشخصية ، والتسامح العام ، والاهتمام المشترك . ثم تتألف شيئا فشيئا من الاشتراك فى تصريف الحياة ، والمناقشة فى بعض مسائل الفكر والمعرفة ، والتعليق على الحوادث والأخبار ، والنزهات المشتركة والألعاب الجماعية ، ووسائل التسلية والأحاديث .

وما أحوج الأولاد فى سن الطفولة وفى سن المراهقة إلى هذه الصداقة العائلية ، التى تساعدهم فى تحقيق رغائبهم وفى حل مشاكلهم ، وفى إشعارهم بأنهم لا يعيشون وحدهم فى هذه الحياة .

ثم هى فى الوقت ذاته مرانة عملية على الحياة الاجتماعية ، التى نشكو من تفككها فى المجتمع ، وهى خليقة بأن تتفكك مادامت بيوتنا غير متماسكة الأواصر بين الآباء والأمهات والأبناء .